الفصل الرابع

أدلة المنجمين وشبهاتهم من القرآن والحديث

من أهم أدلة أهل التنجيم على صحة مذهبهم:

أساس التنجيم فكرة تقول إن الإنسان صورة للكون وانعكاس له، وكل شيء في العالم يتناغم مع وجوده وينسجم معه[١].

وأهم دليل يذكره المنجمون ـ من قديم ـ في مقام الاستدلال على صحة هذا الفن هو ما ثبت بالتجربة والمعاينة من أثر بعض النجوم والكواكب على الأرض وحياة الإنسان، فالشمس مصدر النور والضياء، وهي المسؤولة عن الفصول الأربعة وتواليها المنتظم، وأثرها على النبات لا يخفى. والقمر يحدث حركة المد والجزر في البحار، وبه علم الإنسان عدد السنين والحساب.

يقول توكر: إذا سلمنا بالأثر الفيزيائي للشمس، فلا بد أن نسلمه لسائر النجوم والشموس، وكل جسم مضيء فهو شمس، ولا يمكن أن نعترف بأثر نجم دون آخر، فهذا تحكم لا يصح. فلا بد أن يكون لكل كوكب أثره على الأرض والإنسان، ولو كان ضعيفا[٢].

وإذا كان للكواكب هذه الآثار الفيزيائية المباشرة على حياتنا، فما المانع أن تكون لها أيضا آثار أخرى على سلوكاتنا وأجسامنا وشؤوننا كلها. يقول نيرومان: إن حركة المد والجزر ـ التي يحدثها القمر ـ يمكن أن تتسبب ليس فقط في اضطراب البحار، بل حتى في اضطراب جداول المياه، بل وفي الماء الذي نحمله

(١) L'occultisme du zodiaque, p 28.

(٢) Principes d'astrologie scientifique, p 33.

obeikandl.com

في أنسجتنا ودمائنا. وهذا ما يفسر التأثير المرضي للقمر على صحة الإنسان[١].

ثم إن المنجمين السابقين «امتحنوا عدة مواليد صححوا طوالعها، وجماعة مسائل راعوها، فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة، فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة»[٢]. لقد اختبر القدماء قواعد التنجيم فوجدوها سليمة، واستغرق هذا قرونا من الزمن.

ومما يدل على صحة التنجيم أن علماء كبارا اشتغلوا به، ومنهم كبلر، ومقامه في فيزياء الفلك معروف[٣].

ويدل على صواب التنجيم كذلك تاريخه الطويل، فهو «علم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم، ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعولين عليه في معرفة المصالح، ولو كان هذا العلم فاسدا بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب ـ من أول بناء العالم إلى آخره ـ عليه.»[٤]

الاستدلال على التنجيم على «الطريقة الإسلامية»:

وقد ذكر ابن القيم هذه الأدلة في أحد كتبه[٥]، وهذا ملخصها:

أولا: ما يتعلق بالقرآن الكريم:

١ ـ في القرآن آيات دالة على تعظيم الكواكب. منها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أول سورة الطارق. وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤.

٢ ـ وقد أقسم الباري بالنجوم في مواضع من كتابه، وهذا يدل على غاية جلال مواقع النجوم ونهاية شرفها. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ

---

(١) La fausse science devant l'occultisme, p106 سيأتي في فصل النقد تفصيل الكلام في هذا الدليل الرئيسي للمنجمين، ولعله الوحيد.

(٢) رسالة عيسى أبي القاسم، ص ٥٠٥ في مفتاح دار السعادة.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 209. و Johannes Kepler (١٦٣٠)، فلكي ألماني، اكتشف قوانين دوران الأفلاك حول الشمس.

(٤) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٩.

(٥) راجع مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٦ إلى ٥٠٨.

لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة ٧٥ . وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ التكوير ١٥ .

٣ ـ ودلت آيات أخرى على أن للكواكب تأثيرا في العالم، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ النازعات. ٥ وقوله: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ الذاريات ٤، فقد قال بعضهم المراد بها هذه الكواكب.

٤ ـ وبينت آيات أخرى أنه تعالى وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ يونس ٥ . وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ الفرقان ٦١ .

٥ ـ ثم إن إبراهيم عليه السلام تمسك بعلم النجوم، كما حكى تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ الصافات ٨٨ . وقال أيضا: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾[1]. الأنعام ٧٤ إلى ٨٠ .

٦ ـ وقد حكى تعالى في القرآن أن فرعون كان يذبح بني إسرائيل ويستحيي نساءهم. وقال المفسرون إن ذلك كان لأن المنجمين أخبروه بأنه سيجيء ولد من بني إسرائيل ويكون هلاكه على يده.

٧ ـ وقد وصف الله سبحانه بعض الأيام بالنحس، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فصلت ١٦ .

ثانيا: ما يتعلق بالحديث

أ ـ ففي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر، فقال: استعيذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب». وفي

(١) رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥. مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٦، ٥٠٧. السر الرباني ، ص ١٣٨.

رواية: «أخذ بيدي، ثم نظر إلى القمر، فقال: يا عائشة، تعوذي بالله من هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»[١].

ب ـ عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب. فقال رسول الله: بعثت هذه الريح لموت منافق. فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات[٢].

ج ـ حديث الكسوف، فإنه لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ انكسفت الشمس، فقال الناس ذلك لموته، فقال الرسول ﷺ: الشمس والقمر آيتان لله، لا تنكسفان لموت أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة[٣].

د ـ وفي حديث آخر: لا تسافروا والقمر في العقرب[٤].

هـ ـ وقد نهى النبي ﷺ عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر[٥].

و ـ وتقدم في تاريخ التنجيم، في الكلام عن الروم، أن هرقل استنبط قرب ملك العرب من نظره في النجوم.

ثالثا: الآثار عن الصحابة والتابعين:

وأهم من نسب إليه الإقرار بالتنجيم من الصحابة: علي وابن عباس، رضي الله عنهما. وذكروا أن رجلا أتى عليا، وقال له: إني أريد الخروج في تجارة، وكان

---

(١) رواه أحمد في مسند عائشة، في مواضع، منها ٦/ ٢١٥. والترمذي في كتاب التفسير من سننه، في تفسير المعوذتين، وقال حسن صحيح. قال السخاوي: أخرجه الترمذي عن عائشة وصححه من طريقها، وبه ينتقد تضعيف النووي له. عن: «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»، ص ٥٥ ومعنى وقب أظلم، أو دخل في الخسوف، أو في الغيبوبة.

(٢) رواه مسلم في الصحيح، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٧٨٢.

(٣) حديث الكسوف من أصح الأخبار، وقد توارد الأئمة على تخريجه في كتبهم، منهم أصحاب الكتب الستة، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند... وأكثرهم يخرجه في كتاب مستقل -أو باب- هو الكسوف، أو في الاستسقاء، أو في أبواب الصلاة على العموم.

(٤) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة»، ص ٤٦٠، حديث ١٢٨٩، وقال إنه يروى أيضا من قول علي رضي الله عنه.

(٥) أورد هذه الأدلة من الحديث ابن القيم في مفتاح دار السعادة عن بعض من انتصر للتنجيم، ص ٥٠٥. وذكر الخطيب بعضها في: القول في علم النجوم، في مواضع مفرقة.

ذلك في محاق الشهر، فقال له: تريد أن يمحق الله تجارتك، استقبل هلال الشهر بالخروج[١].

وذكر الخطيب ـ بإسناده ـ أن عكرمة مولى ابن عباس سأل رجلا عن حساب النجوم، وجعل الرجل يتحرج أن يخبره، فقال عكرمة سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه، وددت أن علمته[٢].

ونسب المنجمون إلى ميمون بن مهران ـ وهو من ثقات التابعين توفي سنة ١١٦هـ ـ أنه قال: إياكم والتكذيب بالنجوم، فإنه علم من أعلام النبوة[٣].

وقال المنجمون أيضا: إن الإمام الشافعي كان عالما بالنجوم، وقد حكم لولد بعض جيرانه أنه يكون كذا، فوجدوه كما قال[٤]. وهذا أبو عبد الله الحاكم صنف كتابا في مناقب الشافعي، وذكر من علوم الإمام: الباب الرابع والعشرين في معرفته تسيير الكواكب من علم النجوم. أورد فيه ثلاث حكايات عن الشافعي تدل على تصحيحه لأحكام النجوم[٥].

في إبطال هذه الشبهات:

كلامي في هذه الصفحات هو في رد استدلالات المنجمين بالنصوص والآثار. أما الكلام في غيرها فسيأتي في المبحث السادس.

ما يتعلق بالقرآن:

١، ٢ ـ أما ما يخص النجوم وعظمتها والاستدلال بها فموضعه الفصل الخامس الذي بعد هذا.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٨.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في « القول في علم النجوم» ، ص ١٨٧ إلى ١٨٩. وذكر المحقق أن السيوطي أورد هذا الأثر في الدر المنثور -٣/ ٣٥ ـ ، ونسبه إلى الخطيب، وكذلك أورده الزمخشري في ربيع الأبرار، ١/ ١١٧. وأكثر رجال سند الخطيب مابهم بأس، بحسب ما ساقه المحقق من ترجماتهم. وانظر الجامع لأحكام القرآن ، ٢٥/ ٦٢، الصافات ٨٨. وعكرمة بن عبد الله، بربري، من أجل تلامذة ابن عباس في علم التفسير. توفي عام ١٠٥هـ. الأعلام، ٥/ ٤٣.

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٨.

(٤) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٨.

(٥) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٤٠.

٣ ـ قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾: لم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير إنها النجوم. .بل قالوا هي الملائكة تدبر أمور الدنيا. ولم يذكر المتوسعون في نقل أقوال المفسرين غير الملائكة. فتفسير المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين. وكذلك ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ لم يقل أحد من أهل التفسير العالمين به إنها النجوم، بل قالوا: هي الملائكة التي تقسم أمر الملكوت بإذن ربها، من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال[١].

٤ ـ القرآن واضح في الدلالة على فوائد النجوم من توفير النور والمساعدة على ضبط الحساب. .ونحو ذلك. لكن ليس في الآيات المحتج بها أنها مسؤولة عن السعادة والشقاء، أو أنها تهب وتمنع. وأين هذا في نحو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[٢].

٥ ـ سيأتي الكلام عن الخليل عليه السلام قريبا.

٦ ـ قال ابن القيم: «وأما ما احتج به من أن فرعون كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، لأن المفسرين قالوا كان ذلك بأن المنجمين أخبروه بأنه سيجيء في بني إسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه، فأكثر المفسرين إنما أحالوا ذلك على خبر الكهان. وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بني إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه. وهاتان الروايتان هما الدائرتان في كتب المفسرين، وأما هذه الرواية أن المنجمين قالوا له ذلك فغايتها أنها من أخبار أهل الكتاب، وقد خالفها غيرها من الروايات، فكيف يسوغ التمسك بها في الأمر العظيم. وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك فقد أخبروا بظهور خاتم الرسل محمد ﷺ قبل ظهوره، وذلك موجود في دلائل النبوة. ونحن لا ننكر علم تقدمة المعرفة بأسباب مفضية إليه تختلف قوى الناس في إدراكها وتحصلها، وإنما كلامنا معكم في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي تسندونها إليها»[٣]. فحاصل هذا الرد أن

---

(١) مفتاح دار السعادة، ٥١٣ ـ ٥١٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٥١٥.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

الإخبار بمولد موسى عليه السلام لم يكن من عمل المنجمين، بل هو من عمل الكهان، وهؤلاء قد يصيبون أحيانا، لكن لا بطريق التنجيم.

٧ ـ فسر عبد الله بن عباس آية ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، بأنها متتابعات، وقال الضحاك: شديدة البرد. وعلى القول بأن الأيام النحسات هي المشائيم، فلا دلالة في ذلك على شيء من أصول التنجيم. قال ابن قيم الجوزية: «لا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياما نحسات عليهم.. وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين. فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين.. واليوم يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة، كما كان يوم بدر.. ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحسا على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة، فهذا هو المحال»[1].

وجدير بأيام نزل فيهن عذاب الله تعالى أن تسمى نحسات، وليس للكوكب دخل في هذا العذاب، بل هو أمر الله تعالى يصيب به الظالمين. ثم إننا نصف يوما، فنقول هذا يوم مبارك، وإنما نعني أن الله سبحانه بارك لنا فيه، في أعمالنا وأرزاقنا.. فهذه مسائل لغوية لا ينبغي تحميلها بأكثر مما تحتمل.

ما يتعلق بالحديث:

أ ـ قال الخطيب ـ في حديث الاستعاذة بالله من القمر ـ : المعنى «تعوذي بالله من شره في تلك الحال؛ لأن أهل الفساد ينتشرون في الظلمة، ويتمكنون فيها مما لا يقدرون عليه في حال الضياء، فيقدمون على العظائم، ويجترئون على انتهاك المحارم، فأضاف النبي ﷺ فعل أهل الفساد في تلك الحال إلى القمر؛ لأن سبب ذلك الفعل: كسوفه، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا كان سببا له»[2]. وقال ابن العربي: «وجه إضافة الشر إلى القمر ما يحدث عنده من فعل الله، فهو علامته ووقته، فأضيف إليه كسائر إضافة الأسباب إلى مسبباتها. وقال بعضهم معنى هذا الشر انتشار الحيوانات عنده، فعم.. ولعل الله يحدث عنده شرا لم يعلم به، فأمر

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٤. والضحاك بن مزاحم البلخي، مفسر من التابعين، توفي عام ١٠٥هـ. الأعلام، ٣/ ٣١٠.

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٧١ ـ ١٧٤.

بالاستعاذة. وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من شر ما لم يعلم»[١].

فهذا مجاز من باب إضافة الشيء إلى زمن ما. والمعنى التحذير من فترة الليل، لأنها مظنة للشر من فعل آدمي أو حيوان، لا أن للقمر نفسه ضرا أو نفعا. قال سيد قطب: «المقصود هنا غالبا هو الليل وما فيه، الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته، فضلا على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم، ومتلصص فاتك يقتحم... ومن وساوس وهواجس.. تتسرب في الليل...»[٢] قلت: لعلك إذا وضعت منجما في قلب أدغال الأمازون ليلا، فهم جيدا معنى الاستعاذة في الحديث، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

ب ـ أما حديث هبوب الريح لموت منافق كبير، فقد أجاب عنه الخطيب أيضا بأنه «يجوز أن يكون الله ـ تعالى ـ عرف نبيه ﷺ أنه إذا هبت ريح في يوم كذا، فاعلم أني أميت فلانا، وكفيتك أمره، فيكون قول النبي ﷺ هذا لما تقدم من إخبار الله ـ تعالى
ـ إياه ذلك»[٣].

وقال النووي: بعثت هذه الريح لموت منافق، أي عقوبة له وعلامة لموته وراحة للبلاد والعباد منه[٤].

ج ـ أما حديث الكسوف ففيه تفصيل سيأتي في نظرة الدين إلى بعض الظواهر الفلكية. وهو حجة على التنجيم لا له.

د ـ أما حديث النهي عن السفر، إذا كان القمر في برج العقرب، فقد قال عنه ابن تيمية: كذب مختلق باتفاق أهل الحديث[٥].

---

(١) عارضة الأحوذي، شرح سنن الترمذي، ١٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢. والمؤلف هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، الإشبيلي المالكي، عالم مشارك في أنواع من العلوم. توفي سنة ٥٤٣هـ. انظر الأعلام، للزركلي ٧/ ١٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، ٨/ ٧٠٩.وانظر: مفاتيح الغيب، ٣٢/ ١٩٠ ـ ١٩١، عند قوله تعالى في سورة الفلق: (ومن شر غاسق إذا وقب). وسيد كاتب ومفكر إسلامي من مصر، له كتب كثيرة، توفي سنة ١٩٦٦.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٧٤.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٧/ ١٢٧. كتاب صفات المنافقين. والنووي هو يحيى بن شرف، المحدث والفقيه الشافعي، عاش بدمشق، توفي ٦٧٦هـ. الأعلام، ٩/ ١٨٤.

(٥) الفتاوى، ٣٥/ ١٧٩.

قال ابن القيم: «والذي أوجب للمنجمين كراهة السفر، والقمر في العقرب، أنهم قالوا: السفر أمر يراد لخير من الخيرات، فإذا كان الوصول إلى ذلك الأمر أسرع كان أجود، فينبغي على هذا أن يكون القمر في برج منقلب، والعقرب برج ثابت، والثوابت عندهم تدل على الأمور البطيئة. قالوا: وأيضا البرج للمريخ، والمريخ عندهم نحس أكبر. . .أيضا فإن هذا البرج هو برج هبوط القمر، وإذا كان الكوكب في هبوطه لا يلتئم لصاحبه ما يريده ويقصده، بل يكون وبالا عليه، لأن الكوكب الهابط عندهم كالمنكس. .وبالجملة فإن العقرب عندهم شر البروج. .وليس ذلك مخصوصا عندهم بالسفر وحده، بل يكرهون جميع الابتداءات والاختيارات والقمر في العقرب»[١].

هـ ـ قال ابن القيم: «وأما استدلاله بأن النبي ﷺ نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما، فكأنه والله أعلم لما رأى بعض الفقهاء قد قالوا ذلك في كتبهم في آداب التخلي: ولا تستقبل الشمس والقمر، ظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهي النبي ﷺ عنه، فاحتج بالحديث. وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ لم ينقل عنه ذلك في كلمة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل، وليس لهذه المسألة أصل في الشرع، والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال: العلة أن اسم الله مكتوب عليهما، ومنهم من قال: لأن نورهما من نور الله، ومنهم من قال: إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر وعدم ظهور الفرجين»[٢].

وإنما المحفوظ في أحاديث النبي ﷺ أنه نهى أن تستقبل القبلتين ببول أو غائط[٣]. ورغم ذلك توجد أحاديث ظاهرها الجواز، فاحتاج العلماء إلى التوفيق والجمع بين أحاديث النهي عن استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، وبين أحاديث جواز ذلك وجواز استدبارها[٤].

ثم لو صح ما يقوله المنجمون من استنباط تعظيم الكواكب من مجرد النهي عن

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٢٦.

(٣) رواه أحمد في المسند عن معقل الأسدي، وأبو داود وابن ماجه. كما في الجامع الصغير، ٢/ ٧٠٥.

(٤) راجع إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ١/ ٥٦، أو غيرها من كتب فقه الحديث.

استقبال بعضها في التخلي، لكانت الكعبة المشرفة أولى بنسبة التأثير والفعل إليها، مع وجود الأحاديث الصحيحة الناهية عن استقبالها عند قضاء الحاجة.

و ـ قال ابن حجر في خبر نظر هرقل في النجوم: «فإن قيل كيف ساغ للبخاري إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية أمر المنجمين والاعتماد على ما تدل عليه أحكامهم؟ فالجواب أنه لم يقصد ذلك، بل قصد أن يبين أن الإشارات بالنبي ﷺ جاءت من كل طريق وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم محق أو مبطل إنسي أو جني، وهذا من أبدع ما يشير إليه عالم أو يجنح إليه محتج»[(١)].

ثم إن هذا الخبر هو من كلام صاحب هرقل، وهو ابن الناطور أمير إيلياء، وليس بكلام عبد الله بن عباس، أو مثله ممن يحتج به. وهذا واضح من سياق القصة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري.

الرد على احتجاجهم بالآثار:

الأثر عن علي لا يعلم ثبوته، «والكذابون كثيرا ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والكميان والملاحم وغيرها، فلا يدري ما كذب على أهل البيت إلا الله سبحانه»[(٢)].

وعلى فرض صحته فلعله من باب قول النبي ﷺ: اللهم بارك لأمتي في بكورها[(٣)]. وقد عرف بالتجربة أن ابتداء العمل في أول النهار أجدى[(٤)].

وقد روي عن علي رضي الله عنه عكس هذا، فحين عزم على الخروج لحرب الخوارج اعترضه أحد المنجمين، وهو مسافر بن عوف، وقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فرفض ذلك

---

(١) فتح الباري، ١/ ٦٠ ـ ٦١.وابن حجر العسقلاني هو أبو الفضل أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، أصله من فلسطين، وعاش بالقاهرة، وهو حافظ الإسلام في القرون الأخيرة. الأعلام، ١/ ١٧٣.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٧.

(٣) في الجامع الصغير، ١/ ٤٨٨: رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة. وضعفه السيوطي. وهذا بلفظ بورك لأمتي في بكورها. أما باللفظ الذي في المتن، فقد رواه أحمد في المسند، وابن حبان في الصحيح، وأبو داود، والنسائي والترمذي وابن ماجه، كلهم عن صخر الغامدي. والطبراني في المعجم الكبير عن صحابة آخرين. وهو حديث صحيح كما في الجامع الصغير، ١/ ٢١٦.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

علي، وقال: بل أخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لقولك. ثم خطب الناس، وكان من جملة ما قال: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده[١].

أما خبر عكرمة عن ابن عباس فقد أجاب عنه الحافظ البغدادي بقوله: «الذي سأله عكرمة عنه إنما كان من الضرب الأول الذي كانت العرب تختص به، فظن الرجل أنه محظور لما سمع التغليظ الوارد في علم النجوم، وحسب أنه على العموم»[٢].

ويعني بالضرب الأول من علم النجوم ما نسميه اليوم بعلم الفلك، وعلم الطقس، أي شؤون الكواكب في مقاديرها وحركاتها واتجاهاتها، ومواقيت المطر، واتجاهات الرياح، ونزول الحرارة أو البرد. . .ونحو ذلك مما يعرف بالتجربة ولا يستند فيه إلى التنجيم المحض. وقد استدل الخطيب على هذا بأن المروي عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ إنما هو النهي عن التنجيم لا تقريره، فمن ذلك الحديث الذي رفعه إلى النبي ﷺ، وفيه التغليظ على من اقتبس علما من النجوم، وسيأتي قريبا. ومن أقوال ابن عباس الخاصة: إن قوما ينظرون في النجوم. .وما أرى للذين يفعلون ذلك من خلاق. وقال أيضا لابن مهران: أوصيك بتقوى الله، وإياك وعلم النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة[٣].

وما يروونه عن ميمون بن مهران ليس له سند معروف، فلا تصح نسبته إليه. ثم إن الحجة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه، لا في قول تابعي أو رأيه. ولو صح ما ذكروه عن ابن مهران فما يدريهم أي شيء قصد بالنجوم: هل هو التنجيم فعلا، أم علم الفلك وأحوال الجو. . وقد عرفت أن كليهما يسمى بالنجوم، وأن هذا مصدر خلط أحيانا، فيحتاج فيه إلى احتياط زائد.

أما ما نسب إلى الشافعي من قصص تدل على تصحيحه للتنجيم، فقد أجاب عنه ابن القيم بأجوبة حاصلها ثلاثة:

---

(١) أخرجه الخطيب في «القول في علم النجوم»، ص ١٨١ فما بعدها. وفي القصة بعض الطول والاختلاف بين الرواة، وقد لخصت ما نحتاج إليه منها. وأوردها أيضا ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٥، ٥٣٦. وذكر محقق كتاب الخطيب ص١٨٤ بالهامش ـ أن هذا الخبر أيضا أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «بغية الباحث»، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة».

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٨٩.

(٣) راجع هذه الروايات عن ابن عباس في: «القول في علم النجوم»، ص ١٨٩ إلى ١٩١.

١ ـ الثابت الصحيح عن الشافعي العربي أنه كان علم بما كانت تعرفه العرب من الأنواء ومنازل الكواكب وكيفية الاهتداء بالنجوم. . قال ـ في آية: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ـ : كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض، وشمسًا وقمرًا ونجمًا مما يعرفون من الفلك، ورياحًا يعرفون صفاتها في الهواء، تدل على قصد البيت الحرام[١].

٢ ـ أما الحكايات التي رواها الحاكم فثلاثة، الأولى من طريق محمد بن عبد الله البلوي، كذاب وضاع. والثانية فيها انقطاع في موضعين من السند. والثالثة كذلك. فلا يصح من هذه الأخبار شيء[٢]. قلت: وقد اعتاد العلماء التساهل في أبواب المناقب، وهي مظنة للضعيف والمنكر والموضوع.

٣ ـ والغالب ـ إن حسنت نية النقلة ـ أنهم أخطئوا في هذه الأخبار عن الشافعي، فجعلوها من التنجيم، وإنما هي من باب الفراسة. قال ابن القيم: «الذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن، فإنه غلط على الشافعي. والشافعي كان من أفرس الناس، وكان قد قرأ كتب الفراسة، وكانت له فيها اليد الطولى، فحكم في هذه القضية وأمثالها (يعني حكايات الحاكم) بالفراسة، فأصاب الحكم، فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها. وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهذيان، فكيف بمثل الشافعي رحمه الله في عقله وعلمه ومعرفته»[٣].

فالخلاصة إذن أنه لم يثبت عن السلف اعتراف بالتنجيم أو اشتغال به، فهذا كما رأينا في فصل التاريخ شيء حدث في آخر القرن الثاني. وكما قال ابن القيم:

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٠.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢. الحكاية الأولى هي القصة المشهورة في سؤال هارون الرشيد للشافعي عن علومه، وآثار الوضع والصنعة فيها بادية. وهذا نموذج من روايات الحاكم التي ذكرها بعضهم في الانتصار للتنجيم، وهي الحكاية الثانية: «قال الحاكم أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال: حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة قال: كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم، وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت، فقال: إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما، ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود، ويعيش أربعة وعشرين يوما، ثم يموت. فجاءت به على النعت الذي وصف، وانقضت مدته فمات. فأحرق الشافعي بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها». عن كتاب ابن القيم.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢.

ما «كان النبي ﷺ وأصحابه يعولون على هذا العلم ويعتمدون عليه في مصالحهم، أو قرن التابعين أو قرن تابعي التابعين، وهذه هي خيار قرون العالم على الإطلاق كما أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس. . .

فهل رأيت خيار قرون هذه الأمة والموفقين من خلفائها وملوكها وساداتها وكبرائها معولين على هذا العلم أو معتمدين عليه في مصالحهم وهذه سيرهم ما بعهدها من قدم ولا يتأتى الكذب عليهم، هذا وقد أعطوا من التأييد والنصر والظفر بعدوهم والاستيلاء على ممالك العالم ما لم يظفر به أحد من المعولين على أحكام النجوم»[١].

نسبة التنجيم إلى الأنبياء وعلومهم:

وقال المنجمون أيضا إن علمهم هذا ورثوه عن النبوة، فتارة نسبوه إلى آدم عليه السلام، وقالوا قد عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألفا من أهل بيته، وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم عليه، فأكرمه الله تعالى بهذا العلم، وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حالته[٢]. وتارة قالوا بل هو من علم إدريس عليه السلام، وذكروا أن اسمه عند الأمم القديمة هو هرمس. وربما نسبوا التنجيم إلى إبراهيم الخليل، وإلى النبي الإسرائيلي يوشع بن نون، ويروون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل إن كان لعلم النجوم أصل فقال نعم، وذكر أن قوم يوشع قالوا له لن نؤمن لك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك وعرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار. . .وبقي هذا العلم في بني إسرائيل حتى زمن داود عليه السلام، فدعا الله تعالى فحبست الشمس، فزاد النهار، واختلطت الزيادة بالليل، فاختلط عليهم الحساب. .قال علي: فمن ثم كره النظر في النجوم[٣]. وقيل بل الذي دعا برفع هذا العلم هو عيسى عليه السلام، وكان لا يزال باقيا إلى عهده[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٨.

(٣) في رواية طويلة ذكرها الخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٩٨ ـ ١٩٩. وقد اختصرتها ما أمكن. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٦٢، الصافات ٨٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

والقول بنسبة التنجيم إلى النبي الكريم إدريس عليه السلام أكثر وأشهر.

والواقع أن القول بأن التنجيم من الأنبياء أمر يحتاج إلى دليل، «ومثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح، ولا سبيل لهذا القائل إلى ذلك»[١].

وهذه كتب اليهود والنصارى أقرب عهدا، ومع ذلك حرفت وزيد فيها وأنقص، واختلط فيها الحق بالباطل، فما بالك بما تركه إدريس عليه السلام[٢]، إن كان قد ترك شيئا.

قال ابن تيمية: «هذا إن كان أصله مأخوذا عن إدريس فإنه كان معجزة له، وعلما أعطاه الله إياه، فيكون من العلوم النبوية. وهؤلاء إنما يحتجون بالتجربة والقياس؛ لا بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٣].

والتنجيم جزء من السحر، أو هو قريب منه، «ومن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحرا. وهم يذكرون أنواعا من السحر، ويقولون: هذا يصلح لعمل النواميس، أي الشرائع والسنن. ومنها ما هو دعاية الكواكب، وعبادة لها، وأنواع من الشرك الذي يعلم كل من آمن بالله ورسوله بالاضطرار أن نبيا من الأنبياء لا يأمر بذلك ولا علمه، وإضافة ذلك إلى بعض الأنبياء كإضافة من أضاف ذلك إلى سليمان عليه السلام، لما سخر الله له الجن والإنس والطير، فزعم قوم أن ذلك كان بأنواع من السحر»[٤].

ثم قد تقرر في العقيدة بوضوح أن الأنبياء لا يعلمون الغيب الذي استأثر الله به، ولا يدعونه. ولذلك يقول ابن سينا: إن الأنبياء لهم رسالة واحدة، فهم لا يتناقضون فيما بينهم، ونبينا أخبرنا بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وأخبرنا أنه يخشى على أمته الاعتقاد في النجوم. فنسبة التنجيم إلى إدريس، وهو نبي كنبينا، كذب[٥].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٩.

(٢) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٨٠.

(٣) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٩.

(٤) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٥) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 15. أبو علي الحسين بن عبد الله، الفيلسوف الرئيس(٤٢٨هـ)، أصله من بخارى، برز في الطب والطبيعيات والمنطق. كثير الكتابة. الأعلام، ٢/ ٢٦١.

وقد رد عليهم ابن خلدون من جهة أخرى، وذلك أن فنون التنبؤ بالغيب هي عنده من جملة الصنائع، والأنبياء لا يشتغلون بها، قال: «ربما ذهب ضعفاء منهم (يقصد من المنجمين) إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي. . .ومن أوضح الأدلة فيه (أي إبطاله)، أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق»[(١)].

أما الرواية عن علي في قصة يوشع فسندها ضعيف جدا، لا يحتج بمثله، قال الخطيب: في إسناد هذا الحديث غير واحد مجهول[(٢)]. وهي في الواقع منكرة، لأن الغيب لا يعرفه إلا الله سبحانه، وفي الرواية أن الواحد من قوم يوشع كان يعلم متى سيموت ومتى يمرض وماذا سيولد له. . .ونحو ذلك من شؤون الغيب المحجوب. ثم المحفوظ في أمر تحبيس الشمس أن ذلك كان ليوشع خاصة، لا لداود، عليهما السلام[(٣)].

لكن المنجمين تعلقوا ـ بصفة أقوى ـ بالنبي إبراهيم، ونسبوا إليه التنجيم. وهذا يحتاج إلى بعض التفصيل:

استدلال المنجمين بالخليل إبراهيم:

وقد تعلق أهل التنجيم بسيرة إبراهيم عليه السلام، فقالوا إنه كان اعتقد بألوهية الكواكب، أو على الأقل بتسييرها لشؤون الأرض والناس. وقالوا قد حكى القرآن ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ فقد أطلعه الله سبحانه على العالم العلوي فعرف عنه كل شيء، من الأفلاك وحركاتها. . وسائر شؤونها.

٢ ـ وفي سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٥.

(٢) القول في علم النجوم، ص ٢٠٠. وضعفه أيضا ابن حجر في الفتح، ٦/ ٢٢١ (طبعة ابن باز).

(٣) القول في علم النجوم، ص ٢٠٠.

ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ٧٤ إلى ٨٠ .

٣ ـ وفي الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ، فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ ٨٣ إلى ٩٣ .

والرد على هذه الدعاوى فيه تفصيل، ويحتاج إلى بيان معنى هذه الآيات الكريمة:

أولا ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

في الآية آراء:

١ ـ قال ابن كثير: «أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»[(١)] فهذه رؤية عقلية أو قلبية، ولذلك قال سيد قطب: «استحق إبراهيم عليه السلام بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود..»[(٢)].

٢ ـ وقيل ملكوت السماوات والأرض أي ملكهما، وقيل خلقهما. وقال آخرون: بل معنى ذلك ما أخبر الله تعالى أنه أراه من النجوم والقمر والشمس[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٢. سورة الأنعام، آية ٧٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ٢٩١.

(٣) جامع البيان، ٧/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

٣ ـ وقال الطبري: «وأولى الأقوال ـ في تأويل ذلك ـ بالصواب قول من قال: عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلى له بواطن الأمور وظواهرها. على هذا التأويل: أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسا لا خبرا»[١].

وأي ذلك كان، فقد أطلع الله تعالى إبراهيم على بعض مظاهر ملكه وسلطانه ومسخراته، والنجوم بعض ذلك، وليس في الآية أنه أطلعه على التصرفات المزعومة للكواكب في شؤون الأرض.

ثانيا ـ قصة إبراهيم مع الكواكب وأفولها

اختلف المفسرون في أي المقامين كان عليه إبراهيم عليه السلام، أهو نظر ذاتي وتفكر، أم هو: احتجاج وتناظر مع قومه[٢].

١ ـ مقام نظر: وهذا رأي بعض المفسرين مثل الطبري الذي حكى آراء أصحاب القول الثاني بأن الآية لا تحكي نظر إبراهيم لخاصة نفسه، بل مناظرته لقومه. قال: «في خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه»[٣]. ولذلك قال إبراهيم حين أدرك الحق: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. قال الطبري: «وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما تبين له الحق وعرفه شهد شهادة الحق وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله[٤]». يعني أنه قبلها لم يكن قد تبين له الحق.

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٤٨ ـ ١٤٩. والطبري هو محمد بن جرير، أبو جعفر، توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ، وأصله من طبرستان. مجتهد ومؤرخ، ومن أجل علماء الإسلام. عن الأعلام، ٦/ ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣.

(٣) جامع البيان، ٧/ ١٥١.

(٤) جامع البيان، ٧/ ١٥١.

وعلى هذا الرأي يكون تفسير الآية ما أوضحه العلامة ابن عاشور، قال: «فإذا بنينا على أن ذلك كان استدلالا في نفسه قبل الجزم بالتوحيد فإن ذلك كان بإلهام من الله تعالى، فيكون قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه نريه ما فيها من الدلائل على وجود الصانع ووحدانيته قبل أن نوحي إليه، ويكون قوله ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ بمعنى نظر في السماء فرأى هذا الكوكب ولم يكن نظر في ذلك من قبل، ويكون قوله ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ قولا في نفسه على نحو ما يتحدث به المفكر في نفسه، وهو حديث النفس... وقوله (هذا ربي ـ وقوله ـ لا أحب الآفلين ـ وقوله ـ لئن لم يهدني ربي) كل ذلك مستعمل في حقائقه من الاعتقاد الحقيقي. وقوله ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ هو ابتداء خطابه لقومه بعد أن ظهر الحق له فأعلن بمخالفته قومه حينئذ»[1].

وللعلماء في تأويل هذا من إبراهيم أقوال، فقيل إنما كان ذلك في حال الطفولة، وهو ما تقتضيه الروايات التي ذكرت بعضها في مبحث «سبب الاختلاف»، الذي سيأتي بعد بضع صفحات. وقالوا إن هذه المرحلة في عمر الإنسان ليست بحال تكليف، ولا يكون فيها كفر ولا إيمان[2]. وقيل بل كان ذلك بعد البلوغ، ثم هداه الله تعالى إلى التوحيد[3].

ولسيد قطب رحمه الله تعالى رأي يختلف قليلا عن القول بأن إبراهيم كان في مقام نظر، فهو يرى أن النبي الكريم انطلق من الفطرة وتدرج بها في الوصول إلى الإيمان، فهذا أيضا مقام نظر، لكن سيد قطب لا يقول إنه اعتقد في الأصنام أو في الكواكب فترة ما، بل هو كان يتأمل بفطرته التي تنفي ألوهية هذه الأشياء: «﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةًۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. إنه لم يهتد بوعيه وإدراكه إلى إلهه، ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة... وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى، وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها... ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾... إنها صورة

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٥.

(٢) جامع البيان، ٧/ ١٥٠. فتح الباري، ٧/ ٤٠، عند شرح حديث الكذبات الثلاث، وسيأتي.

(٣) مفتاح الغيب، ١٣/ ٥٠.

لنفس إبراهيم، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبده أبوه وقومه من الأصنام، وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله، وتزحم عالمه، صورة يزيدها التعبير شخوصا بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، كأنما الليل يحتويه وحده، وكأنما يعزله عن الناس حوله، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته، ومع همه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره... ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم. وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا. ولكن الكوكب ـ الليلة ـ ينطق له بما لم ينطق من قبل، ويوحي إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله، ويزحم عليه عالمه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربا، ولكن لا، إنه يكذب ظنه: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ، قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾، إنه يغيب، يغيب عن هذه الخلائق، فمن ذا يرعاها إذن، ومن ذا يدبر أمرها... ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى، هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ ولكنها كذلك تغيب. هنا يقع التماس وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب، ويفيض على الكون الظاهر، وعلى العقل والوعي... وعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة... ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»[1].

٢ ـ مقام مناظرة:

إن إبراهيم لم يعتقد لحظة في ألوهية الكواكب، وإنما كان ما حكاه القرآن طريقة في الاحتجاج على قومه والاستدلال على خطئهم في اعتقادهم أن للكواكب التأثير الذي يتصورون[2]. قال الطبري عن المفسرين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي: «زعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس هذا ربي، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون به، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوء وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم يكن مع ذلك

(١) اختصرته من الظلال، ٣/ ٢٩٠ إلى ٢٩٤.

(٢) راجع بحث الرازي في معنى الأفول، وكيف يدل على عدم ربوبية الكواكب. مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٥ إلى ٥٨.

معبودا، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، والأصنام التي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة»[١].

وقد ذهب إلى هذا الرأي الآخر كثير من المفسرين ورجحوه على الأول، منهم: الرازي، وابن عاشور[٢]. قال ابن كثير: «الحقّ أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل. وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[٣].

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٥٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٤٨. تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣. التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣.

وإنما كان هذا التفسير أولى عند أصحاب هذا القول، وأن إبراهيم كان موقنا بنفي ألوهية الكواكب، وأنه إنما أراد استدراج قومه إلى إقامة الحجة عليهم، لأن هذا «هو المناسب لصفة النبوة، أن يكون أوحي إليه ببطلان الإشراك، وبالحجج التي احتج بها على قومه[١]». وقد كان إبراهيم محجاجا، كما حكى عنه القرآن: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ الأنعام ٨٣ .

وقالوا: إن إبراهيم ناظر قومه بما حكاه القرآن في أحد هذه الأحوال:

١ ـ قال ذلك على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ[٢]. فيكون معنى الكلام: أهذا ربي، على وجه الإنكار والتوبيخ، أي ليس هذا ربي، والعرب قد تفعل مثل ذلك فتحذف الألف التي تدل على معنى الاستفهام[٣].

٢ ـ أو قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيها على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية. قال ابن حجر: «وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخا لقومه أو تهكما بهم، وهو المعتمد، ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات»[٤]. أي في الحديث الآتي[٥]. ومن ذلك قول إبراهيم في كسره للأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾. الأنبياء ٦٣ .

٣ ـ قوله: هذا ربي، معناه هذا ربي في زعمكم واعتقادكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، أي عندك وفي ظنك[٦].

٤ ـ أن يكون القول مضمرا في الآية، والتقدير: قال إبراهيم يقولون هذا ربي. وإضمار القول في القرآن كثير، منه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا﴾... أي يقولون ربنا[٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٤.

(٢) فتح الباري، ٧/ ٤٠.

(٣) جامع البيان ، ٧/ ١٥٠ ـ ١٥١. وانظر مفاتيح الغيب ، ١٣/ ٥٢.

(٤) فتح الباري، ٧/ ٤٠. وانظر جامع البيان ، ٧/ ١٥٠.

(٥) وهو قول النبي ﷺ إن إبراهيم لم يكذب غير ثلاث كذبات: قوله (إني سقيم)، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا)، وقوله لسارة: أختي.

(٦) مفاتيح الغيب ، ١٣/ ٥٢، والآية ٩٧ من سورة طه.

(٧) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٣.

٥ ـ قصد إبراهيم إلى الاستهزاء بقومه، مثل الآية الأخرى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[١].

٦ ـ ومن الوجوه التي ذكرها الرازي ـ وهو قريب جدا من الوجه الثاني ـ : «أنه ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة. وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئنا بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله، وتمام التقرير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقا سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر»[٢].

وعلى هذا الرأي ـ مقام مناظرة ـ يكون التفسير كما يلي: «قوله ﴿جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ﴾ أي أظلم الليل إظلاما على إبراهيم، أي كان إبراهيم محوطا بظلمة الليل، وهو يقتضي أنه كان تحت السماء ولم يكن في بيت.

ويؤخذ من قوله بعده ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنه كان سائرا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناما. وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم...

وظاهر قوله ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أنه حصلت له رؤية الكواكب عرضا من غير قصد للتأمل وإلا فإن الأفق في الليل مملوء كواكب، وأن الكوكب كان حين رآه واضحا في السماء مشرقا بنوره...

وجملة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ وهو أن يسأل سائل: فماذا كان عندما رآه، فيكون قوله ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ جوابا لذلك...وظاهر قوله: ﴿قَالَ﴾ أنه خاطب بذلك غيره.. ولذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية من لفظها ومن ترتيب نظمها إذ رتب قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ على قوله ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ

(١) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٣.

﴿ٱلْمُوقِنِينَ﴾ ورتب ذلك كله على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ الآية، ولقوله تعالى ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وإنما يقوله لمخاطب، ولقوله عقب ذلك ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدل به على براءته مما يشركون مع أنه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى لولا أن ذلك هو مدعى قومه؛ فدل ذلك كله على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة فيكون قد جمع جمعا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

وقوله ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ أي خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي. قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق. ولا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه ـ عليه السلام ـ لأنه لما رأى أنه ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده.

. . . وجاء بـ ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودا إلا وهو عالم.

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس، وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيبا عن هذا العالم، يعني أن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلها لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه. . .

وقوله ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ . . . وهو يقتضي أن القمر طلع بعد أفول الكوكب، ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس. . .

وقوله ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا

يستحقان ذلك مع أنه عرض في كلامه بأن له ربا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب. وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب. ثم عرض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون، لأن قوله ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه... وقوله ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي في الصباح بعد أن أفل القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس لأن الظاهر أن هذا الاستدلال كله وقع في مجلس واحد.

...وقوله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى...

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكا لأن قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهية غيره كما كان إشراك العرب، وهو ظاهر آي القرآن حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض...»[1].

سبب الاختلاف:

وهما سببان:

١ ـ ظاهر القرآن، ففيه مآخذ لكلا الفريقين، كما سبق بيانه.

٢ ـ الروايات الواردة في تفسير الآية.

وقد أوردها الطبري في تفسيره، ومال إلى اعتبارها، من جهة موافقتها لظاهر القرآن. وأهم هذه الروايات اثنتان لا بأس من نقلهما هنا ليتبين القارئ السبب الذي أوجب الاختلاف بين جماعة المفسرين:

أ ـ قال الطبري حدثني «المثنى قال ثنا أبو صالح قال ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ يعني به الشمس والقمر والنجوم، فلما جن عليه

(١) مختصرا من التحرير والتنوير، ٧/ ٣١٧ إلى ٣٢٣.

الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فعبده حتى غاب فلما غاب قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فعبده حتى غاب فلما غاب قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فعبدها حتى غابت فلما غابت قال يا قوم إني بريء مما تشركون»[١].

ب ـ وأخرج الطبري أيضا قال: «حدثني محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق فيما ذكر لنا والله أعلم: أن آزر كان رجلا من أهل كوثى من قرية بالسواد »سواد الكوفة« وكان إذ ذاك ملك المشرق لنمرود بن كنعان، فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجة على قومه ورسولا إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبي إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمرود، فقالوا له: تعلم أنا نجد في علمنا أن غلاما يولد في قريتك هذه يقال له: إبراهيم، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا، فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آزر، فإنه لم يعلم بحملها وذلك أنها كانت امرأة حدبة ـ فيما يذكر ـ لم يعرف الحمل في بطنها، ولما أراد الله أن يبلغ بولدها أراد أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة حذرا على ملكه فجعل لا تلد امرأة غلاما في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق، خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يصنع مع المولود، ثم سدت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل فتجده حيا يمص إبهامه، يزعمون والله أعلم أن الله جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصه. وكان آزر ـ فيما يزعمون ـ سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: ولدت غلاما فمات، فصدقها، فسكت عنها، وكان اليوم ـ فيما يذكرون ـ على إبراهيم في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر، حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني

(١) جامع البيان، ٧/ ١٤٩. تعني كلمة «ثنا» في عرف المحدثين: حدثنا، وكذلك «ثني» هي حدثني، و«نا» أنبأنا .. فهذه اختصارات.

وسقاني لربي، ما لي إله غيره، ثم نظر في السماء فرأى كوكبا قال: هذا ربي، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم طلع القمر فرآه بازغا، قال: هذا ربي، ثم اتبعه ببصره حتى غاب، فلما أفل، قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس أعظم الشمس ورأى شيئا هو أعظم نورا من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه، وبريء من دين قومه، إلا أنه لم يبادئهم بذلك وأخبر أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه، فسر بذلك آزر وفرح فرحا شديدا، وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدونها، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم ـ فيما يذكرون ـ فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها منه أحد، وإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب فيه رؤوسها وقال: اشربي، استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة، حتى فشا عيبه إياها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته من غير أن يكون ذلك بلغ نمرود الملك»[(١)].

رد هذه الروايات من جهة السند:

والحقيقة أن الأخبار التي يذكرها أهل القول الأول ـ بأن إبراهيم كان في حال نظر لنفسه ـ لا تصح. ويتبين هذا إذا درسنا هاتين الروايتين عن الطبري:

أ ـ الرواية الأولى ضعيفة، لأن فيها أبا صالح ومعاوية بن صالح، وهما ضعيفان[(٢)].

ب ـ والثانية كذلك، وقد ضعف علماء الجرح والتعديل محمد بن حميد وسلمة بن الفضل[(٣)]. ومن جهة أخرى فإن هذا الخبر مرسل، ولم يبين ابن إسحاق ـ وهو

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) أبو صالح هو عبد الله بن صالح الجهني المصري، كاتب الليث بن سعد، ضعفوه من قبل حفظه وضبطه. انظر تهذيب التهذيب، ٥/ ٢٥٦. الكامل في ضعفاء الرجال، ٤/ ١٥٢٢. أما معاوية بن صالح أبو عمر فصدوق، لكن تكلم فيه. تولى القضاء بالأندلس، وتوفي حوالي العقد السادس من القرن الثاني. راجع الكامل لابن عدي، ٦/ ٢٤٠٠ إلى ٢٤٠٢ . ويقع في حديث كلا الراويين مناكير.

(٣) محمد بن حميد هو أبو عبد الله التميمي الرازي، توفي سنة ٢٤٨هـ ، ضعفوه، كما في تهذيب =

من أتباع التابعين ـ عمن رواه، فلعله مما تلقي عن أهل الكتاب.

ردها من جهة الأصول والمعنى:

وهذا الرد نقله الطبري بنفسه، قال: «وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روي عنه من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر هذا ربي، وقالوا غير جائز أن يكون لله، نبي ابتعثه بالرسالة أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل ما يعبد من دونه بريء. قالوا ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر لم يجز أن يختصه بالرسالة لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من، خلقه مناسبة فيحابيه باختصاصه بالكرامة. قالوا وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة»[1].

ومن ناحية أخرى فإن ظاهر الآية يقتضي أنه لا يوجد زمان طويل بين التفكر أو مناظرة القوم، وبين البراءة منهم ودعوتهم إلى التوحيد، واستعمال فاء التعقيب في جمل الآية يشير إلى ذلك. أما في الروايات فالزمان بين الأمرين طويل، لأن التفكر ـ بحسبها ـ حدث في الطفولة، وإعلان البراءة من المشركين كان بعد البلوغ.

ثم إن الآيات الواردة في النبي إبراهيم عليه السلام، لم تصوره أبدا على أنه مر بمرحلة من الشك أو الشرك، أو الاعتقاد في الكواكب أو عبادتها، بل على العكس من ذلك هي تفيد أنه كان موحداً منذ البداية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النحل ١٢٠ . ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾الأنبياء ٥١ . وفي الحديث أن كل مولود يولد على الفطرة[2]، وإنما يأتي التهويد والتنصير والتكفير بعدها.

= التهذيب، ٩/ ١٢٧. وسلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري مولاهم، أبو عبد الله الأزرق، قاضي الري. روى عن شيوخ جلة كالثوري وأبي جعفر الرازي، وعنه كذلك كيوسف القطان وابن معين. وتوفي سنة ١٩٠هـ. فيه أقوال كثيرة ومتقاربة حاصلها أن حديثه لا يحتج به، لكثرة ما فيه من مناكير وأخطاء، ولأن بعض النقاد جرحوه. انظر تهذيب التهذيب، ٤/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

(١) جامع البيان ، ٧/ ١٥٠.

(٢) في معجم ونسنك لألفاظ الحديث: رواه البخاري في الجنائز، باب ٨٠، وفي تفسير سورة الروم، وفي القدر. ورواه مسلم في كتاب القدر، أحاديث ٢٢ إلى ٢٤. وأحمد في المسند.

مناقشة الرازي للمذهب الأول:

وقد اجتهد الرازي في رد القول الأول، وفرعه على الاحتمالين السابقين في القصة:

الاحتمال الأول: أن القصة وقعت بعد البلوغ، كما هو مقتضى الروايات. قال الرازي: اتفق أكثر المحققين على فساد هذا القول على هذا الاحتمال[١]. وذكر لذلك أدلة:

١ ـ إن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء، للإجماع أيضا.

٢ ـ إن إبراهيم كان قد عرف ربه، بدليل قوله ـ قبل هذه الواقعة ـ لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ، إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣ ـ وهذا الكلام لأبيه آزر، وفيه من الخشونة واللفظ الموحش ما هو ظاهر. يدل على أنه سبق لإبراهيم عليه السلام، أن دعا أباه مراراً، وبرفق، لأن من دعا غيره إلى الله تعالى يقدم الرفق أولاً، لا شك في ذلك.

٤ ـ إن هذه الواقعة حدثت بعد أن أطلعه الباري تعالى على الملكوت، فكيف يعتقد شيئا لا ينبغي.

٥ ـ إن دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة لا تخفى على الخليل في عقله وعلمه.

٦ ـ قد قال تعالى في صفة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]، وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليما عن الكفر. ولذلك يقول ابن كثير: «كيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ...﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا...﴾ وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣][٢].

٧ ـ إن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم لقومه، دليله أنه تعالى لما ذكر القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، ولم يقل على نفسه.

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣.

٨ ـ وقد قال أصحاب الرأي الأول إن قصة إبراهيم مع الكواكب حدثت وهو في الغار يتأمل. ولو صح ذلك فلم قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وليس في الغار أحد. وقال تعالى أيضا: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، فهذا يدل على وقوع المخالطة والمجادلة بين إبراهيم وقومه[1]...

ولله در الفخر الرازي، فإن له قدرة عجيبة على توليد الصور والاحتمالات والأدلة.

الاحتمال الثاني: أن ما قاله إبراهيم كان قبل البلوغ. وقد قبل الرازي هذا الاحتمال، على شرط أن يكون ذلك عند القرب من البلوغ، قال: «تقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية، فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم، فقال ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فلما شاهد حركته قال ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾. ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا البحث فقال في الحال ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، فهذا الاحتمال لا بأس به، وإن كان الاحتمال الأول أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة، على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد والله أعلم»[2].

ولم يظهر لي لم اشترط هذا القرب وما الداعي إليه، وربما لأنه رأى أن اعتقاد ألوهية الكواكب في زمن الطفولة. بعيد، لحديث النبي ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة. أو شرط ذلك دفعا لطول اعتقاد ما لا ينبغي، فكأن ذلك كان شيئا عابرا في طفولة الخليل عليه السلام.

خاتمة:

وهذا الاختلاف بين المفسرين واقع في الزمن قبل نبوة إبراهيم، أما بعدها فما اعتقد الخليل شيئا في الكواكب، وهذا بصريح القرآن وباتفاق أهل الإسلام. فحتى لو قلنا بالرأي الأول: إن إبراهيم اعتقد في البداية ـ قبل التكليف، أو في مهلة النظر ـ ألوهية النجوم، فليس في هذا متمسك للمنجمين، يستدلون به على عقيدتهم في الكواكب. لأن ذلك كان من إبراهيم عليه السلام في الصبا، أو في أول طلب

(١) راجع مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٠ إلى ٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٤.

الهداية، وكان عذره عدم العلم، أما بعد ذلك فلا شك أنه أنكر ألوهية الكواكب وتدبيرها للكون، فقد كان عليه السلام حنيفا، وما كان من المشركين.

إذن لا يستدل بالخطأ على تقرير أمر مختلف فيه. وبحسب هذا المنطق التنجيمي، يمكن أيضا أن نستدل على جواز القتل الخطأ بفعل موسى لما لكز المصري، وعلى جواز ترك الناس بلا دعوة ومن دون الإقامة الكاملة للحجة بفعل يونس، وعلى جواز التشفع في الكافر بفعل نوح، وعلى جواز التبني بفعله ﷺ إياه قبل النبوة. وهذا كله لا يستقيم، فلا دلالة في الآية لأهل التنجيم، على جميع الآراء.

ثالثا ـ قصة إبراهيم ناظرا في النجوم.

وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾

القصة:

وفيها روايات كثيرة، وخصوصا عن ابن عباس وتلامذته من علماء التفسير، وحاصلها كما لخصها البغوي أن إبراهيم عليه السلام «كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لها القرابين، ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، زعموا للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه. فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غدا معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم، فقال إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فرارا عظيما... ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم، فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها»[1].

وفي أسانيد روايات القصة كلام، لكن الذي يصح من القصة بلا إشكال، فنحتفظ به هنا، هو ما يلي:

١ ـ إن قوم إبراهيم عليه السلام أرادوه معهم على شيء.

٢ ـ فأفهمهم أن به سقما.

---

(١) معالم التنزيل، ٧/ ٤٤ ـ ٤٥. والبغوي هو الفقيه المحدث الحسين بن مسعود، المعروف بالفراء (٥١٠هـ) أصله من خراسان. له تآليف مطبوعة، عن الأعلام، للزركلي، ٢/ ٢٨٤.

٣ ـ وأنهم لذلك تركوه.

٤ ـ ثم بعد ذلك مباشرة اختلى بأصنامهم فكسرها.

احتجاج المنجمين بالقصة:

وقد استدل المنجمون ـ ممن ينتسب إلى الإسلام ـ بهذه القصة على صحة التنجيم. وقالوا إن إبراهيم عليه السلام استنبط بنظره في النجوم أن به مرضا، أو سيحل به قريبا[١].

تفاسير الآية:

وسنرى الآن في تفاسير العلماء لهذه القصة هل للمنجمين سند صحيح في دعواهم هذه أم لا. وفي ذلك سنستعين بما رواه البخاري ـ وغيره ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عز وجل: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني»[٢].

والإشكال في الآية ـ والذي أكده الحديث ـ هو من وجهين متمايزين:

الأول: في دعوى إبراهيم عليه السلام السقم والمرض، بينما ظاهر النصوص يقتضي أنه كان صحيحا معافى.

الثاني: في ربطه تلك الدعوى بالنظر في النجوم.

ولننظر الآن في تفاصيل ذين الإشكالين:

الإشكال الأول: في مرضه عليه السلام

---

(١) انظر: رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٦، ٥١٧. السر الرباني في علوم الفلك والروحاني، ص ١٣٨.

(٢) هذا الفظ البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث ٣٣٥٨. والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ٢١، حديث ٣١٧٨.

وأكثر تأويلات أهل العلم ـ في هذه المسألة ـ تدور حول قولين: إما أن إبراهيم عنى السقم حقيقة، أو عرض به.

القول بأنه عنى السقم حقيقة: وفيه وجوه:

١ ـ ذكر بعض المفسرين أن قوله: إني سقيم، معناه: إني سقيم القلب، مريضه، بسبب كفركم وشرككم، فشبه غمه وحزنه بالمرض، كما قال تعالى لنبيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ الكهف: ٦[(١)]. ولا يخفى أن الأسى والحزن له على البدن مثل أثر المرض العضوي.

٢ ـ قال أبو السعود: «قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل، فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة، فإذا هي قد حضرت، فقال إني سقيم، وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم»[(٢)]. ورده ابن حجر بقوله: «هو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذبا لا تصريحا ولا تعريضا»[(٣)]. يعني: وحديث النبي ﷺ وصفه بالكذب.

٣ ـ قوله: إني سقيم، أي إنني مريض الآن، ولا يمكنني الخروج معكم إلى معيدكم. فالمقصود هنا هو المرض حقيقة[(٤)]، أي البدني. قال القاسمي: «ترخص عليه السلام بذلك ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم، مما تجوزه المصلحة»[(٥)].

وهذا القول هو ظاهر الآية والحديث معا، لأن قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ يحمل على الحاضر، كما أن وصف هذا القول في الحديث بالكذب يفيد أنه لم يكن مريضا في

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨. إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢. نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبرهان البقاعي، ١٦/ ٢٥٤. محاسن التأويل، ١٤/ ٥٠٤٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢. مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨. وأبو السعود هو محمد بن مصطفى العمادي، مفسر وشاعر، أصله تركي. توفي عام ٩٨٢هـ. الأعلام، ٧/ ٢٨٨.

(٣) فتح الباري، ٧/ ٤٠.

(٤) انظر: معالم التنزيل، ٧/ ٤٥. محاسن التأويل، ١٤/ ٥٠٤٧. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤٢.

(٥) محاسن التأويل، ١٤/ ٥٠٤٧. القاسمي هو جمال الدين بن محمد، مولده ووفاته بدمشق (١٣٣٢ هـ ١٩١٤م)، عالم ومصلح اجتماعي، ترك كثيرا من الكتب. الأعلام، ٢/ ١٣١.

الواقع.

وروي عن بعض السلف أن المرض الذي ادعاه إبراهيم عليه السلام هو الطاعون. قالوا وكان ذلك أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، فهربوا عنه وتركوه لوحده. . . [١] وظاهر الآية يفيد أن النبي الكريم أشار لهم إلى مرض لم يعينه، لكنهم ربما فهموا أن ذلك المرض يعدي وقد يصيبهم، فلذلك تولوا عنه مدبرين، أي فارين منه. وقال بعضهم: بل تولوا عنه مدبرين لكفرهم واحتقارهم لأمره[٢]. قلت أو كانوا في عجلة من أمرهم.

القول بالتعريض:

وفيه آراء:

١ ـ قال الطبري: «. . وقال آخرون: إن قوله إني سقيم، كلمة فيها معراض، ومعناها أن كل من كان في عقبة الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر[٣]». وقال الضحاك: قوله: سقيم، أي سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت. وعلق على ذلك القرطبي فقال: وهذا تورية وتعريض، كما قال للملك ـ لما سأله عن زوجته سارة ـ هي أختي، يعني أخوة الدين[٤].

٢ ـ الرأي الثاني: قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تعريض، بمعنى «أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة، إما في بدنه، وإما في قلبه، وكل ذلك سقم»[٥].

٣ ـ وقال مفسرون آخرون: قوله إني سقيم، أي سأسقم، واسم الفاعل يجيء كثيرا

---

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٠ ـ ٤١. الكشاف، ٣/ ٣٤٤. معالم التنزيل، ٧/ ٤٥. مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ١٣ / ٢٤٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٤١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.

(٦) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨. فتح الباري، ٧/ ٤٠، حديث الكذبات الثلاثة.

(٧) الكشاف، ٣/ ٣٤٤. والزمخشري هو أبو القاسم محمود بن عمر، من خوارزم، إمام في التفسير البلاغي واللغوي، توفي ٥٣٨هـ. الأعلام، ٨/ ٥٥.

(٨) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣. إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢. وأبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مفسر وفقيه حنفي، وله في ذلك مصنفات جليلة (٧١٠هـ). الأعلام، ٤/ ١٩٢.

بمعنى المستقبل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، الزمر ٣٠ [١].
فحمله بعضهم على مستقبل بعيد نسبيا، مثل مرض الموت. والزمخشري يحمله على المستقبل القريب، ولذلك قال: إني سقيم، أي مشارف للسقم[٢]. وتبعه على ذلك النسفي وأبو السعود[٣].

قال القرطبي: «المعنى إني سقيم فيما أستقبل، فتوهموا هم أنه سقيم الساعة. وهذا من معاريض الكلام»[٤].

تفسير الحديث:

وقد سلك العلماء في نظرهم في الحديث طرقا مختلفة، بحسب حملهم لقول إبراهيم عليه السلام على الحقيقة أو التعريض:

الأول ـ أخذ الحديث على ظاهره. وهذا قول جماعة من العلماء. وحكاه ابن عطية[٥].

ولذلك رد هؤلاء المذهب الذي يقول إن إبراهيم عرض وما كذب. قال الطبري: «والخبر عن رسول الله ﷺ بخلاف هذا القول، وقول رسول الله ﷺ هو الحق دون غيره»[٦].

وقال المازري: «أما الأنبياء عليهم السلام فمعصومون من الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله سبحانه قل ذلك أو جل لأن المعجزة تدل على صدقهم في ذلك.

وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصغائر كالكذبة الواحدة في شيء من أمور الدنيا فيجري ذلك على الخلاف في عصمتهم من الصغائر...

وقد وصف ﷺ أن اثنتين من كذبات إبراهيم عليه السلام كانتا في ذات الله سبحانه، والكذب إنما يترك لله، فإذا كان إنما يفعل لله انقلب حكمه في بعض المواضع على حسب ما ورد في الشريعة، والقصد بهذا التقييد منه ﷺ نفي مذمة الكذب عنه لجلالة قدره في الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٣.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣ / ٢٤٣. وانظر جامع البيان، ٢٣/ ٤٠ ـ ٤١. أبو محمد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (٥٤٢هـ). من أهل غرناطة، تولى القضاء، وغزا مع المرابطين. عن الأعلام، ٤/ ٥٣.

(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٤١.

وقد تأول بعض الناس كلماته هؤلاء حتى تخرج عن كونها كذبا، ولا معنى لأن يتحاشى العلماء مما لم يتحاش منه النبي ﷺ؛ ولكن قد يقال: إن المراد تسميتها كذبا على ظاهرها عندكم في مقتضى إطلاقكم عند استعمالكم اللفظ على حقيقته، ألا تراه يحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لسارة: «أخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام»، ومن سمى المسلمة أختا له قاصدا أخوة الإسلام فليس بكاذب، لكنه ﷺ إنما أطلق عليه لفظة الكذب لما قلناه من أن الأخت في الحقيقة المشاركة في النسب، وأما المشاركة في الدين فأخت على المجاز، فأراد أنها كذبة على مقتضى حقيقة اللفظة في اللغة، وعلى أن قوله: «إنها أختي» قد يكون في ذات الله إذا أراد بها كف الظلم وصيانة الحريم، لكن لما كان له فيها منفعة ميزها ﷺ عن الأوليين اللتين لا منفعة له فيهما. هذا الذي يظهر لي في تأويل هذا الحديث»[(١)].

الثاني: تأويل الحديث بأنه لا يعني الكذب حقيقة، فهو تجوز في الكلام. وبهذا قال الزمخشري والقرطبي والنسفي[(٢)]. وحكاه ابن عطية مذهبا ونصره[(٣)]. قال القاضي عياض ـ وهو ممن يرى هذا الرأي ـ : معنى الحديث «أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب، وإن كان حقا في الباطن، إلا هذه الكلمات»[(٤)]. وقال ابن حجر في الحديث: «أما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا، لكنه إذا حقق لم يكن كذبا، لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض»[(٥)]. فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عد هذا ذنبا[(٦)].

واختلفت أساليب العلماء في كيفية التأويل، فابن العربي مثلا يقول: «الكذب

---

(١) المعلم بشرح فوائد مسلم، ٣/ ١٣١.

(٢) الكشاف، ٣/ ٣٤٤. الجامع لأحكام القرآن ، ١٥/ ٦٣. مدارك التنزيل ، ٤/ ٢٤.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٤٣.

(٤) الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى، ٢/ ١٤١. لصاحبه القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، من أهل سبتة، توفي بمراكش ٥٤٤هـ ، محدث ولغوي كبير، ومن أجل علماء المغرب. الأعلام، ٥/ ٢٨٢.

(٥) فتح الباري، ٧/ ٤٠. كتاب أحاديث الأنبياء.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ، ١٥/ ٦٣.

هو الخبر عن الشيء بخلاف مخبره، كان بقصد أو بغير قصد، مأذونا فيه أو غير مأذون، ولم يحرم لعينه ولا قبح لذاته، لأنه قد يوجد الكذب في الشريعة واجبا كتخليص المسلم من الظالم، وقد يوجد مستحبا ككذب يدفع الضرر عن الكاذب في أحد القولين وفي القول الآخر أنه واجب، وقد يكون مباحا ككذب الرجل لأهله. . والأنبياء معصومون عن المعاصي، وخصوصا الكذب، وخصوص الخصوص في تبليغ الشرائع، فإذا كان في التبليغ لم يجز بقصد وبغير قصد. وأما الناس فإذا جوزنا لهم الكذب فلا يجوز إلا بالتعريض، لا بالقصد إليه صريحا كما بيناه في كتاب الأدب آنفا في تفصيل القول في المواطن التي يجوز فيها الكذب. فأما إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه فلا قصد الكذب ولا جرى في خبره كذب، لأنه قال إني سقيم، وما أعظم سقمه بما كان يرى من الكفر والباطل، وقال بل فعله كبيرهم هذا، حجة لله ودليلا على توحيده وإبطال قول المؤتفكة بأن الأصنام آلهة، ولذلك رجع الكفار إلى أنفسهم بالملامة، فقالوا إنكم أنتم الظالمون في اعتقادكم أنهم ينفعون أو يضرون. وقال هذه أختي في زوجه سارة إذ قال لها ليس على الأرض مسلم غيري وغيرك فأنت أختي في الإسلام، لدفع الظالم عن ارتكاب الفاحشة والاستطالة على أهله، ولكنه عاتب نفسه على ذلك إذ رأى أنه كان له أن يعدو هذه الكلمات إلى غيرها وأن مرتبته في الاصطفاء والخلة كانت أعظم من أن يلجأ إلى الاعتذار لهم والملاينة ولم يصدمهم بما يكرهون ويصرح لهم بالمعروف في ما ينكرون فاستحيى من ذلك وهو العلي القادر القائم الحجة البريء الساحة من كل وهم ودرك»[١].

بينما يقول الطاهر ابن عاشور: «قد ظهر من نظم الآية أن قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لم يكن مرضا، ولذلك جاء الحديث الصحيح (ثم ذكر حديث الكذبات الثلاث). . .ودفع الإشكال: أن تسمية هذا الكلام كذبا منظور فيه إلى ما يفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام، وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعاريض، أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج، أو في التألم من كفرهم، وأن قوله «هي أختي» أراد أخوة الإيمان، وأنه أراد التهكم في قوله «بل فعله كبيرهم هذا» لظهور قرينة أن

(١) عارضة الأحوذي، ١٢/ ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤٣. وراجع كلاما آخر لابن عقيل الحنبلي في: فتح الباري، ٧/ ٤٠.

مراده التغليط.

وهذه الأجوبة لا تدفع إشكالا يتوجه على تسمية النبي ﷺ هذا الكلام بأنه كذبات. وجوابه عندي: أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ، ولا المجاز، ولا التهكم، فكان ذلك عند قومه كذبا، وأن الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثا من عصي فيضرب به ضربة واحدة ليبر قسمه، إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام»[١].

الثالث ـ رد الحديث: وقد كاد الرازي يقول بهذا الطريق، قال: «قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة، ورووا فيه حديثا عن النبي ﷺ أنه قال (ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات). قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل، لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز، فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى»[٢]. ثم استدرك الرازي على نفسه حين رأى للتأويل موضعا، فقال: «ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب؟»[٣].

ولا بد من سلوك أحد الطريقين الأوليين: إما إجراء الخبر على ظاهره، أو تأويله بمعنى قريب. أما رد الحديث من أصله فلا ينبغي، مع رواية الأئمة له في الصحاح، ومع إمكان تأويله.

الإشكال الثاني: وجه الربط بين دعوى المرض والنظر في النجوم.

وحله يتوقف على تفسير جملة: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾، ما معناها، وهل المقصود النظر فعلا في كواكب السماء وأجرامها، أو كل ذلك مجاز من الكلام. وكلا المعنيين مذهب:

أ ـ على القول بأن المقصود بالنجوم الحقيقة:

وهذا ظاهر النص القرآني، وبه قال الجمهور، بحسب ما حكاه ابن عطية[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/١٤٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/١٤٩.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/٢٤٣.

(٤) مدارك التنزيل، ٤/٢٣. وانظر المحرر الوجيز، ٢٣/١٤١.

ثم اختلفوا لأي شيء نظر إبراهيم في الكواكب والنجوم على قولين:

١ ـ إن إبراهيم نظر في النجوم عرضا، على سبيل التفكر فقط، وليدبر حجة يتخلص بها من قومه.

قال النسفي: «أي نظر في النجوم راميا ببصره إلى السماء متفكرا في نفسه كيف يحتال»[١].

٢ ـ إن إبراهيم عليه السلام أوهمهم أنه ينظر إلى النجوم حقيقة.

وهذا ظاهر تفسيري الطبري[٢] والبقاعي[٣]. وحكاه القرطبي[٤]. قال القاسمي: «(فنظر في النجوم) أي ليريهم على أنه يستدل بها على شيء، لأنهم كانوا منجمين»[٥]. وقال النسفي ـ وهو أحد وجهين عنده ـ : «أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه سقيم»[٦]. وهذا يقتضي النظر في الكواكب نفسها لمعرفة الطالع وغيره. لكن الزمخشري اختار العموم، والمعنى عنده أن الخليل نظر «في علم النجوم، أو في كتابها، أو في أحكامها. .وكان القوم نجامين. فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم أنه سقيم»[٧]. وكذلك ذكر الرازي أن «قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون

---

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) في تفسيره: نظم الدرر، ١٦/ ٢٥٤. إبراهيم بن عمر الخرباوي البقاعي، أديب ومفسر ومحدث. عاش بدمشق والقاهرة، وتوفي سنة ٨٨٥هـ. له: الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل. رسالة في مسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان. ديوان شعر.. وأهم كتبه تفسيره هذا. عن معجم المؤلفين، ١/ ٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٤) محاسن التأويل، ١٤/ ٥٠٤٦.

(٥) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣.

(٦) الكشاف، ٣/ ٣٤٤.

(٧) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.

حتى إذا قال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله»[١].

ورأي الطبري أوفق بظاهر الآية، أعني أنه نظر في النجوم، لا في كتبها.

ب ـ على القول بأن المقصود بالنجوم المجاز:

١ ـ نجم هنا بمعنى ظهر، والنجوم مصدر، أي نظر فيما نجم له من الرأي[٢]، أو المعنى تفكر فيما نجم من كلامهم، لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليدبر حجة[٣]. قال الرازي: «نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة، ومنه نجوم الكتابة. والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾»[٤].

٢ ـ يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم[٥]، ولو لم يكن ناظرا إليها حقيقة أثناء تفكيره، فالآية جرت «مجرى المثل في التعبير عن التفكير، لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر، فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلا، بل المراد أنه نظر للسماء التي هي قرار النجوم، وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم»[٦].

لا دلالة في الآية على اشتغال إبراهيم بالتنجيم:

ولعله من الواضح أن الإشكال في الآية لا يرد إلا على القول الثاني من المذهب الأول، أي إذا قلنا إن إبراهيم عليه السلام نظر في النجوم والكواكب بعينها، أو في كتبها وأحكامها. قال أبو السعود: «ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليتركوه، فإن القوم كانوا نجامين، فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة في علم النجوم على أنه سقيم[٧]». فإبراهيم لم ينظر في النجوم ليقصد الاستدلال بها

---

(١) المحرر الوجيز، ١٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢.

على طريقة أهل التنجيم، وإنما أوهمهم بذلك فقط، وليتخلص منهم ومن إلحاحهم عليه للأمر الذي أرادوه عليه. قال أبو القاسم عيسى: «إنما قال هذا ليدفع قومه عن نفسه، ألا ترى أنه عز وجل قال بعد: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾، فبين تبارك وتعالى أنه إنما قال ذلك ليدفعهم به لما كان عزم عليه من أمر الأصنام. وليس يحتاج أحد إلى معرفة أصحيح هو أم سقيم من النجوم، لأن ذلك يوجد حسا ويعلم ضرورة ولا يحتاج فيه إلى استدلال وبحث»[١].

وسيرة النبي الكريم مع قومه تدل على عكس ما يروجه هؤلاء، قال ابن القيم: «متى بعث الله رسولا يعاني التنجيم والنرنجات والطلسمات والأوفاق والتداخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة؟ وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسل إلا بالإنكار على هؤلاء؟...

وهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل هؤلاء المنجمين الصابئين، وحران كانت دار مملكتهم، والخليل أعدى عدو لهم، وهم المشركون حقا، والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صورا وتماثيل للكواكب، وكانوا يتخذون لها هياكل، وهي بيوت العبادات، لكل كوكب منها هيكل فيه أصنام تناسبه؟»[٢].

ويشير الحديث إلى أن إبراهيم عليه السلام حين كان يمتحن بشيء شديد، فيريد التخلص منه، يلجأ إلى الحيلة ويتلطف بالأسلوب. فهو سمى زوجته أختا، وعنى أنها أخته في الدين، وكانت تلك طريقته في تجنب بغي الملك الظالم. وكذلك نظره في النجوم مجرد حيلة استعملها لكي يستفرد بالأصنام فيحطمها. وهذا كله من إبراهيم عليه السلام ليس سببه الضعف أو الهوان، وهو أحد أولي العزم من الرسل، ودليله أنه ثبت على دعوته ودينه حين هدد برميه في النار، بل حتى بعد رميه فيها.

ولذلك قال العلامة ابن عاشور: «لم ينطق إبراهيم بأن النجوم دلته على أنه سقيم، ولكنه جعل قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مقارنا لنظره في النجوم، أوهم قومه أنه عرف

(١) رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦. والآية من الصافات، ٩٠ ـ ٩١.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٧.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم. . .وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص، ومن يزعم ذلك فقد ضل دينا، واختل نظرا وتخمينا. وقد دونوا كذبا كثيرا في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم»[١]. وقال ابن القيم: «ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم، ثم قال لهم: إني سقيم. فمن ظن من هذا أن علم أحكام النجوم من علم الأنبياء، وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء ونسبهم إلى ما لا يليق، وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر، وزعم أن تلقيهم الغيب من جنس تلقي غيرهم»[٢].

فليس في الآية إلا أنه نظر في النجوم نظرا مجردا، ولا تدل بحال على أن إبراهيم عليه السلام الذي بعث بالتوحيد ورد الأمر كله لله، ونبذ عبادة الكواكب. . .كان يمارس التنجيم أو يرى أن للنجوم أثرا على حوادث الأرض.

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٦ ـ ٥١٧.